البرهان علئ همس الطاء

قارة حداش الهواري

(جامعة وهران)

لا يجوز الخلاف بين العلماء في قضية بسيطة ومهمة وأساسية في مكونات اللغة. اللغة أصوات، والصوت مخرج و صفات، و بها يتميز الصوت عن غيره من الأصوات.والاختلاف بين العلماء في جهر الطاء أو همسه أمر عظيم، كعظم أهمية الجهر و الهمس في اللغة.

و إذا كان الخلاف طبعا في دواخل العلماء، فلا حيلة لدفعه إلاّ الوقوف حياله الموقف السليم لإبراز حقيقة الأمر المختلف فيه.

و إذا كان الخلاف واضحا بين العلماء حول قضية ما، فالموقف السليم، أن تحدد موقفك من هذه القضية، و يكون الموقف عن اقتناع و عن رؤية موضوعية للمسألة. كل الآراء، و كل الخلاف في الآراء يتحطم على صخر اللغة و لا يسلم من ذلك إلاّ الرأي الحق.

للأصوات اللغوية مبادئ أساسية يقوم شأنها عليها و هي:

أولا: التنوّع و التميّز و التفرّد.

ثانيا: التناظر.

ثالثا: التعامل الصوتي.

رابعا: تآلف الأصوات فيما بينها.

و سنرى مدى انسجام صوت الطاء مع هذه المبادئ.

المبدأ الأول: **التنوع و التميّز و التفرّد:** التاء والطاء والدال تخرج من مخرج واحد وهو وسط الفم من طرف اللسان و أصول الثنايا. لهذه الأصوات تعاملات كثيرة فيما بينها، و خاصة في صيغة افتعل.

يقول **سيبويه**:"وأصل الإدغام لحروف الفم و اللسان، لأنّها أكثر الحروف"[1].

و يقول إبراهيم أنيس :" الدال، الضاد، التاء، الطاء. والصفة التي تجمع بين هذه الأصوات الأربعة عدا اتحاد مخارجها، هي الشّدّة " [2]

و يقول في موضع آخر: " التاء: صوت شديد مهموس، لا فرق بينه و بين الدال سوى أن التاء مهموسة و الدال نظيرها المجهور"[3]. و يقول عن الطاء:" ...لا تفترق عن التاء في شيء، غير أنّ الطاء أحد أصوات الإطباق"[4].

فالطاء بمخرجه وهمسه و شدّته و إطباقه متميّز عن الضاد بالهمس، لأن الضاد صوت مجهور و عن التاء بالإطباق لأن التاء صوت مرقق، و عن الظاء بالشدّة و الهمس لأن الظاء صوت رخو و مجهور، وعن الدّال بالهمس و الإطباق لأن الدال صوت مجهور و مرقق و عن الصاد بالشدة لأن الصاد صوت رخو. الطاء بصفاتها هذه مختلفة عن كل الأصوات المذكورة، و متميّزة كلّ التميز عن كلّ صوت بشكل منفصل عن غيره و هي بهذا الاختلاف والتميّز تتفرّد كصوت مستقلٍ وتْرٍ لا ثانيَ له في الأصوات اللغوية. و هو بالهمس و الشدة و الإطباق يحقق المبدأ الأساسيّ الأول؛ و هو التنوّع و التميّز و التفرّد الذي تقوم عليه

الأصوات اللغوية و لو كان مجهورا لتداخل مع صوت الضاد لأن الضاد صوت مجهور و شديد و مطبق. و لم يرد في أصوات اللغة صوتان متطابقان في كل الصفات في حيز واحد.

يقول القيسي: "و لو كانت المخارج واحدة، و الصفات واحدة لكان الكلام بمنزلة أصوات البهائم التي لها مخرج واحد و صفة واحدة لا تفهم، فهذه حكمة جبل الله عليها هذه الحروف في أصوات بني آدم لتخرج بهذه الصفات عن جنس أصوات البهائم، لأن أصوات البهائم لا اختلاف في مخارجها ولا في صفاتها، و لذلك لا تفهم فباختلاف صفات هذه الحروف في ألفاظ بني آدم، و اختلاف مخارجها، و تباين طباعها فهم الكلام و ظهر المعنى القائم في نفس المتكلم للمخاطب و عُلمَ المُرَادُ "[5].

المبدأ الثاني: التناظر: يقول صاحب التشكيل الصوتي:" التاء و نظيره الطاء. الدال ونظيره الضاد. السين و نظيره الصاد. الذال و نظيره الظاء ".[6] و الثابت في الجهاز الصوتي بين الأصوات اللغوية، هو مبدأ التناظر بين الأصوات. فالطاء بمخرجه هذا و بصفاته هذه ينسجم تمام الانسجام مع هذا المبدأ.الطاء يناظر الصاد بالشّدّة، لأن الصاد رخو و يناظر الضاد بالهمس، لأن الضاد مجهور و يناظر الظاء بالهمس والشدّة، لأن الظاء مجهور و رخو. فهي أربعة أصوات مطبقة و التناظر تقابل و تمايز في أدنى صفة و هو ليس بحاجة إلى التمايز بعديد الصفات. و هذا ما هو واقع هنا، و ما يعضد و يدعم ما نحن بصدد الحديث عنه ما جاء في سورة فصلت في رويّ فواصل الآيات 48 و 49 و 50 و 51.

لقد انتهت هذه الآيات في فواصلها بأصوات الصاد ثمّ الطاء ثمّ الظاء ثمّ الضاد، بهذا الورود المتسلسل من الآية 48 إلى الآية 51.

نلاحظ أنّ الصاد يناظر الطاء لأنهما يتشابهان في صفة الهمس و يختلفان في صفة الشدة و الرخاوة، و شتان ما بين أهمية الجهر و الهمس في الأصوات و الشدة و الرخاوة. و ناظر الضاد الظاء و جاء بعده كما جاء الطاء بعد الصاد، لأنهما يتشابهان في الجهر و الهمس و يختلفان في الشدة و الرخاوة.

مواقع الأصوات في القرآن الكريم لا تأتي على غير هدى، و إنمّا هي حكمة الله في كتابه العزيز. قال تعالى:" **وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ** ۝٦ "[7]. و حكمة

الله اقتضت أن يأتي المهموس بعد المهموس، و أن يأتي المجهور بعد المجهور و أن يأتي الصوت الضعيف قبل الصوت القويّ. و الضعف يتمثل في رخاوة الصاد و الظاء أمام شدّة الطاء، و الضاد، و الضعف كذلك يتمثل في همس الصاد و الطاء فتقدما عن الظاء و الضاد لجهرهما. و أصبح التناظر مركبا بين صوتين مهموسين الصاد و الطاء، و بين صوتين مجهورين الظاء و الضاد، و بين أربعة أصوات صوتان مهموسان الصاد و الطاء و صوتان مجهوران الظاء و الضاد. و هذه الحكمة في نظم أصوات الفواصل في القرآن الكريم تدعو إلى التدبّر بروية في هذا الكتاب المجيد. ترجيح همس الطاء عن جهره، يجعل الطاء متميّزاً عن غيره من الأصوات و متفرداً في الجهاز الصوتي، و لا يتداخل مع أيّ صوت آخر. و بالهمس يناظر الأصوات المطبقة كلّها بشكل هندسي، و لا يقع موقع صوت آخر. و لو قلنا بجهره لتداخل مع صوت الضاد، و لأصبحا بمثابة صوت واحد، و إذا تطابقا استغنت اللغة عن أحدهما، و تقلّص التنوّع في الأصوات بسبب زوال التمايز، و الطاء لازلنا نستعمله و الضاد كذلك.

و لا نكتفي بالتنوّع و التميّز و التفرّد و التناظر، بل ندخل مع صوت الطاء إلى عوالم تعاملاته مع غيره من الأصوات و التحاكم إلى قوانين هذا التعامل و يكون هذا هو المبدأ الثالث.

المبدأ الثالث: **التعامل الصوتي:**

التاء في صيغة افتعل ترتفع إلى الطاء مرة و إلى الدال مرة أخرى، فهي تصعد إلى الطاء مع الأصوات المطبقة سواء كانت مجهورة أم مهموسة. و لها خلافات دقيقة مع كل صوت، و هذه الخلافات في التعامل مع كل صوت هي التي ترجّح همس الطاء من جهرها.

أولا صوت الضاد: في الفعل الثلاثي ضجع، تكون صيغة افتعل: اضطجع و لا يجوز إدغام المجهور في المهوس لأن المجهور أقوى من المهوس، فمن أدغم الضاد في الطاء قال اطّجع، و يعلق ابن جني على هذه اللغة قائلا:

و هذا شاذ لا يؤخذ به"[8]. و مثل كذلك ببيت من الشعر **لعلقة** الفحل يقول فيه:

و في كل حي قد خَبَطْ بنعمة ❖ ❖ فحُقَّ لشَأسٍ مِن نَـدَاك ذنُـوبُ.

فإنه أراد" خبطت و لو قال "خبطت" لكان أقيس اللغتين [9]"، و هو يشبه صيغة خبطت بصيغة افتعل مثل اطترد التي تصبح اطّرد، و المانع عنده هو عدم اتصال ت في خبطت، كاتصال تاء افتعل، لأن تاء خبطت هي أولا ضمير متصل للخطاب و هي متطرّفة لا تعامل معاملة تاء افتعل لتوسطها.

هذا تبرير غير صوتي، و هو تبرير مكاني لصوت التاء في اللفظة، و لولا أنّ ابن جني فسّر المسألة صوتيا، لبقي في جوهر التعامل الصوتي بين الأصوات، حيث الطاء أقوى من التاء بالإطباق، و هي ساكنة و ما بعدها متحرك، و لو كانت الطاء أخف من التاء لجاز الإدغام، ولأن هذا لم يكن قال:" و لو قال خبطت" لكان أقيس اللغتين، أي الإظهار أفضل.

هناك مسألة أخرى تشبه هذه المسألة من حيث الاتصال و الانفصال، و هي أكثر انفصالا من خبطت، و لكن جاءت خاضعة لقانون التعامل الصوتي.

قال تعالى:"وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ " [10]. و في آية ثانية :" إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ "[11].

التاء هنا في كلمة و الطاء في أخرى، و هذه أكثر انفصالا من خبطت، لأن الطاء و التاء في كلمة واحدة، و التاء الساكنة للتأنيث أقل اتصالا من تاء الضمير في الفعل لأنها تحذف مع المؤنث غير الحقيقي و تذكر، أما تاء الضمير لا تحذف أبدا، و نرى الإدغام بين التاء و الطاء في أحلى صورة، لأن التاء تقدمت و كانت ساكنة و لأنها أخفّ من الطاء بخلو الإطباق منها و هذا هو الأهم. و القانون يقول: الأخف يدغم في الأقوى. يقول صاحب مفهوم القوة و الضعف في أصوات العربية:" و يفهم من ذلك أن إدغام الصوت القوي في الضعيف مكروه عند العرب؛ لأن فيه إجحافاً للصفة و تنازلاً عنها عند إدغامها في صوت أضعف منها، و إذا حدث هذا الإدغام المكروه يلاحظ بقاء أثر الصفة القوية في الصوت الضعيف

المدغم فيه مسموعاً نحو إدغام الطاء في التاء في مثل (أحَطت و بَسَطت)" [12]. و هذا ما لا يقوى على إنكاره أحد.

ثانيا: صوت الظاء: و ينشد ابن جني بيت زهير على أربعة أوجه[13]:

هو الجواد الذي يعطيك نائلَه ❖ ❖ عفوا و يظلم أحيانا فيظلظم.

و يروى: يطّلم و يظّلم و يظطلم و ينظلم. فصيغة يظطلم هي أفصح لغة، و لهذا ذكرت في البيت مباشرة، و جاءت بالإظهار لأن الظاء هنا سبقت الطاء و هي ساكنة و الطاء متحركة، و لكنّ الظاء أقوى من الطاء لأن الظاء مجهورة و الجهر قاهر للهمس، لهذا ذكرها زهير الشاعر الفحل الذي يحتج بشعره بالإظهار و لو كانت هناك صيغة أفصح منها لجاءت في البيت.

ثالثا: أصوات الدال و الذال و الزاي: يقول صاحب مباحث في علم الصرف:" تبدل الدال من تاء افتعل و جميع مشتقاته ومصدره إذا كانت فاؤه دالا أو ذالا أو زايا" [14]. مثل: ازدجر و اذدكر و ادّعى.

هذه الأصوات كلّها مجهورة، و الدال كذلك مجهورة و الطاء مهموسة و مطبقة و لو كانت الطاء مجهورة لصعدت التاء مع هذه الأصوات إلى الطاء لأنها أقوى من الدال بالجهر و الإطباق، و بما أنّها مهموسة و الجهر يغلب الهمس أبدلت التاء دالا لتضارع الدالُ الزاي و الذال و الدال في الجهر. و بهذا التعامل الصوتي يتأكد همس الطاء. و لو كانت الطاء مجهورة لأغنت بجهرها و إطباقها عن الدال، و لارتفعت التاء مرة واحدة إلى الطاء مع كل هذه الأصوات؛ الصاد و الضاد و الظاء و الزاي و الذال و الدال، لأنّها في هذه الحالة هي الأفضل بجهرها. و هذا لم يحدث. و هذا ما يرجح همس الطاء عن جهرها.

المبدأ الرابع: **تآلف الأصوات فيما بينها**: من خلال تآلف الأصوات فيما بينها نحاول أن نتابع تآلف الطاء مع الأصوات. فهل الطاء في تآلفه يسلك مسلك تآلف الأصوات المهموسة أم مسلك تآلف الأصوات المجهورة ؟! يقول ابن جني:" و كذلك الطاء و الدال و التاء لا يتَركّبْنَ إلاّ أن تتقدم الطاء و التاء على الدال نحو وَتِدَ و مَحْتِدٍ و وَطَدَ "[15]، فهي هنا تتصرف كتصرف التاء مع الدال، و لولا التشابه في الهمس لما تقدمتا عن الدال.

و زيادة على ما قال و لولا خفّة التاء و الطاء بالهمس لما تقدمتا عن الدال المجهورة.

قال تعالى:"**وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**

﴿٢٦٠﴾ [16]

الطاء بهمسه و شدّته و إطباقه يختلف عن باقي الأصوات المطبقة الأخرى فهو في صميم المبدأ الأول وهو التّنَوّع و التميز و التفرد.

و بصفاته هذه يوافق المبدأ الثاني و هو التناظر، و بهذه الصفات أيضا يحقق المبدأ الثالث وهو الانسجام مع قوانين التعامل الصوتي، و بهمس الطاء لا بجهره يوافق التاء في تآلفه مع الدال، وهذا جوهر المبدأ الرابع، فهل ترجح الهمس عن الجهر؟!

و نذكر هنا قولا لسيبويه يدعم همس الطاء عن جهرها:" الطاء مع الدال كقولك: اضبدَّ لماً. لأنّها مع موضع واحد و هي مثلها في الشدَّة، إلاّ أنَّك قد تدع الإطباق على حاله فلا تذهبه، لأنّ الدال ليس فيها إطباق، فإنّها تغلب على الطاء لأنّها من موضعها و أنّها حصرت الصّوت من موضعها كما حصرته الدال. فأمّا الإطباق فليست منه في شيء و المطبق أفشى في السّمع و رأوا إجحافاً أن تغلب الدال على الإطباق و ليست كالطاء في السّمع. و بعض العرب يذهب الإطباق حتى يجعلها كالدال سواءً، أرادوا أن لا تخالفها إذ آثروا أن يقلبوها دالاً، كما أنّهم أدغموا النون بلا غنّةَ"17.

و تعليقا على كلام سيبويه حول إدغام الطاء في الدال هنا، نذكّر بالمبدأ الأصل في الإدغام و هو إدغام الضعيف في القويّ، و هذا مخالف لاعتقاد سيبويه أن الطاء أقوى من الدال، لأنها مجهورة و مطبقة، و هي أقوى فكيف تدغم في الضعيف؟

و هو لا يستسيغ إدغام الطاء في الدال، و إنما التعامل وضعه أمام الأمر الواقع و قوله: و رأوا إجحافا أن تغلب الدال على الإطباق، و ليست كالطاء في السّمع. و بعض العرب يذهب الإطباق حتى يجعلها كالدال سواءًا. و قوله: أن لا تخالفها. و الطاء تخالف الدال في السّمع، و الخلاف في السّمع مرده في الغالب إلى الجهر و الهمس. فإذا كانت تخالفها فهي تخالفها فيهما. اللغة هي الحكم. و التعليل تالٍ لها، و قبول إدغام الطاء في الدال على مضض يستدعي التفطن إلى الأمر، و الأمر في غاية اليسر، و لو كان سيبويه يعتقد أن الطاء مهموسة، لأضعف الطاء لهمسها و ارتاح لإدغامها في الدال، لأن المجهور أقوى من المهموس مهما كانت الصفة التي تكون معه. وهذا دعم لهمس الطاء.

و نختم البرهان على همس الطاء، بآيات بيِّنات من سورة فصلت، يظهر فيها التناظر جليّا بين الصاد و الطاء و الظاء و الضاد، و بين الصاد و الطاء من جهة و بين الظاء و الضاد من جهة أخرى.

آيات من سورة فصلت

بسم الله الرحمن الرحيم

وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (48)لا يَسْأَمُ الإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ (49)وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (50)وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (51).

صدق الله العظيم

الهوامش

سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر. الكتاب. تح عبد السلام محمد هارون. دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة 2. 1982. مكتبة الخانجي القاهرة. الجزء 4. ص 448.2 أنيس، د.إبراهيم. الأصوات اللغوية. الطبعة الرابعة1961 م . ص48.
المرجع نفسه: ص 61.
4 المرجع نفسه: ص .61
5 القيسي، مكي بن أبي طالب. الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة تح: أسامة هيثم عطايا. دار الفارابي للمعارف. ط1 2005 .ص .79
6 العاني، د. سلمان حسن، التشكيل الصوتي في اللغة العربية فونولوجيا العربية ترجمة د. ياسر الملاح، مراجعة د. محمد محمود غالي، النادي الأدبي الثقافي جدة الطبعة الأولى 1983، الصفحة من 72 إلى .76
7 سورة النمل، الآية: .06
8 ابن جني، أبو الفتح عثمان. سر صناعة الإعراب. د و تح: حسن هنداوي دار القلم. دمشق. الطبعة الأولى 1985 ج الأول ص .215
9 المصدر نفسه. ص .219
10 سورة آل عمران. الآية .69
11 سورة آل عمران.الآية .122
12 الجبوري، د. محمد يحي سالم، مفهوم القوة و الضعف في أصوات العربية دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 2006م.الصفحة .43
13 سر صناعة الإعراب. ص 219.الجزء الأول.
14 عبد الله، د. إبراهيم محمد. مباحث في علم الصرف. دار سعد الدين. دمشق. الطبعة الأولى. ص .186
15 سر صناعة الإعراب. الجزء الثاني. ص818.
16 سورة البقرة. الآية 260
17 الكتاب.الجزء الرابع. ص 460.

المصادر و المراجع

القرآن الكريم.
ابن الجني، أبو الفتح عثمان. سر صناعة الإعراب. د و تح: حسن هنداوي دار القلم. دمشق. الطبعة الأولى. 1985.
سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر. الكتاب. تح عبد السلام محمد هارون. دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة 2. 1982. مكتبة الخانجي القاهرة.
أنيس، د. إبراهيم، الأصوات اللغوية. الطبعة الرابعة 1961 م.
عبد الله، د. إبراهيم محمد . مباحث في علم الصرف. دار سعد الدين . دمشق. الطبعة الأولى.
القيسي، مكي بن أبي طالب . الرعاية لتجويد القراءة و تحقيق لفظ التلاوة تح: أسامة هيثم عطايا .دار الفارابي للمعارف . ط1 2005 .

الجبوري، د. محمد يحي سالم، مفهوم القوة و الضعف في أصوات العربية، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 2006م.
العاني، د. سلمان حسن، التشكيل الصوتي في اللغة العربية فونولوجيا العربية ترجمة د. ياسر الملاح، مراجعة د. محمد محمود غالي، النادي الأدبي الثقافي جدة الطبعة الأولى 1983.